قصة قصيرة

الإسراء

مهداة الى م. محمود دياب

بقلم محمد الصباحي

- ١ -

انظروا اليه ... ها هي الايام تلعب به ، تنقلب عليه ، تطوح به بعيدا عنا . كان المسكين اعقل الناس ، مؤدبا ، يحافظ على المواعيد ، أمينا ، طائعا كالخروف ، والساذج هو من يأتمن الزمن ... كانت آخر رغباته أن يهاجر هذا الانسان ... وها هو يطوف الشوارع ، يبول في سرواله أمام الملأ ، يركض ، يقلد أصوات الطيور ومنبهات السيارات ، انه مجنون ، أحمق ... فرّجوا عن أنفسكم المهمومة ، هذه مناسبة لا تعوّض ، ابتسموا ، تبتسم الدنيا لكم ، والجنون وحده يكبح جماح الغرباء .

« ... الآن أعود اليك يا حبيبتي ، لم أعد أهوى الاسفار ولا الاقامة ، الآن أبتلع نفسي ، أمتطي صهوة فرحتي ، وأعود . هل أقول صرت عاقلا ، أم نذلا ؟.. صعبان عليّ الجنون أيتها المجنونة ، صعبان عليّ الحق المكنون في عيون نسائك يا عاهرتي الفاضلة ، صعبان عليّ عقلك الخائف من ظله ، الباكي كالطفل عند أقدام السواح والمقامرين ، الضاحك من همه ... أما عقلي فيرتدّ اليّ ... الآن أدخل الى عقلي ، وأبقى ... تملأني حتى قمة الرأس هموم الليل والنهار ... » .

في الصباح الباكر ، يتوكل أصحاب المتاجر ، يشرعون في الاستعداد للربح ، وكنز الاموال ، ينظفون عتبات دكاكينهم ، يكنسون الاجسام الآدمية والحيوانية النائمة في العراء ، يكنسون جسم المجنون ويلحسون أول درهم يسقط في أكفهم الجشعة ... في مدينة بيضاء كالضباب ، كبيرة بلا عقل ، وقف مجنون على قدميه ، وخطب في قطط وكلاب المدينة :

« ... أيتها القطط الجائعة ، والمتخمة ، المتناسلة بلا هدف ، وأيتها الكلاب الضالة المحرومة ، المحظوظة .. هل أدلكم على شجرة محار ، تمنح المال والجاه لكل من سقاها من ماء وجهه ، جرعة ماء ، هل أخترع لكم اللحم والخبز ، أم أحدثكم عن نفسي ؟

أما بعد : فيا معشر الخلائق ، ان أحسن الكلام ما أغناكم قليله عن كثيره . والعِلم علمان ، علم حمل ، وعلم احتمل ، والعاقل اذا لم يعلم شيئا كان كمن لا عقل له ... أنا من أنا في زماني ، أنا سيدكم الخضر رضي الله عنه ، شربت من عين الحياة ، أنا غير قابل للفناء ، وآخر انسان يموت على هذه الكرة ... هل أحدثكم عن جيل يأتي بعدي يطعمكم اللحم الطازج ، يملأ الارض كفرا وايمانا . ويسافر ... حتى أنا سأسافر ، سأقود التاريخ الضرير الى الهاوية ، أنا اللغم ، أضحك على التاريخ ، نضحك عليه ، سوف أعلمكم فنّ الضحك ، لتصبحوا أنتم كذلك : حيوانات ضاحكة مثلي ... أم أحدثكم عن بلاهة الآباء الحابلة بنجابة الابناء . واسافر. أركب الليل وجميع الاوقات . أم أدلكم على الاموات الهاربين من قبورهم ، أم على القبور الماشية الى أمواتها ؟! هل أنساكم ، واسافر ؟ يكنسني أصحاب الدكاكين كل صباح ... والاحمق هو من ينسى ما تبقى في حلقه من ثمالة الشتم والاهانة ... أما العاقل فيكنس كل شيء ، حتى الاجسام ، يأكل ، يشرب ، يتبرّز ، ويعانق النساء والهموم التافهة ، تفرخ في كل رأس وزاوية ... انا سيدكم ، أخطب فيكم ، تخطبون فيّ ، أتعرى أمامكم الا من لون عيوني ، تتعرون أمامي الا من عقولكم .

هذا والسلام والى اللقاء ... أما أنت ، حبيبتي ، فأنا المتفرد بحبي لك ، وكلهم يتجشأونك ، يرونك ماخورا أو حانة ، أو امرأة لا تصلح الا للسرير ، السرير، وأنا وحدي أراك عروسة جديرة بالطهر ، وحدي أعرف براءتك . ولا أبغض أحدا ، ولا أشيع على جسمك العهر ولا الايام العجاف ... » .

انه يتحدث مع ملائكته ، فلا تثقوا بمن يهرف بما لا يعرف ، فنحن أسمى من تخيلات المجانين ، شيدنا الحضارة للانسان ، وبنينا المستشفيات والعنابر للمجانين ، نصنع التاريخ ، وننجب الابطال والموظفين ،

نصدر الصبر للخارج ولا نستهلك الا ما لذّ وطاب ... باختصار ، نحن في تقدم مستمر نحو كواكب السماء ، والجنون فنون ...

« ... أنا الخضر عليه السلام ، أقرب اليكم منكم ، وبعيدا عنكم ، بعدكم عني ، تروني ولا أراكم وأراكم ولا تروني ، أنا اللغم الذي سوف يفجركم ، ضاعت نفسي ، رأيتها فيكم ، صرت انسانا ، والنـــاس في الشارع وفي المقهى ، الناس يحومون حولي ، الناس في السرير ، في الحمام ، في السجن ، وفي المستشفى والمحاكم ، الناس حاضرون حضوري بينكم ، وغائبون غيبتي عنكم ، الناس في كل مكان ... في اللامكان ... » .

وابتسم حتى ظهرت اضراس عقله . وكان النـاس يلامسون الناس بالعيون وبالالسنة ، بالصدور والاعناق ، ويقبّلون الوجنات الوردية والصفراء ولا يستحون مـن السواح والملائكة ... عند ذاك نام الاحمق في أمان على الرصيف حتى الصباح .

« ... الليلة آتيك يا سيدتي كما تشائين ، امـــا متهما ، واما معتوها بحبّ نبيل ، ملقى على قارعة الطريق . تطأني اقدام الانسان ، ولا أحد يبوح بحبك غير المجانين . هل أقول صرنا مجانين ؟

وصارت هذي المدينة مستشفى بلا سيـــــاج ولا دواء ... والريح ... تعريني الريح القارسة ، تحضنني برودة حبك ، ترجفني . العيون تذبحني ، فأرقص مـن الالم . هل أقول صرنا مجانيـن ؟ أم أسافر ؟ أسري بين الرجفة والذبح ، أشاهد جسمي الغريب بينكم ينكرني ، يضيع مني بين ثنايا الفصول ... نصفي العلوي لانسان من أواخر القرن العشرين ، والنصف السفلـــي لحصان عربي أصيل ، يجري مسعـــورا من المحيط للخليج ...

أنا الخضر ... حاولت مرارا أن أماشيكم ، فـلم تماشوني ، حاولت أن أكون مجنونا فعقلتموني ، ذكرتني ثنايا الوجوه والفصول ... حاولت الجنـون ، فذكرتني آهات الاقبية المجهولة ، فخفت من ظلي ... » .

قالت له والدته : لا تخف يا ولدي ، تلك أصـوات أطفال الجن ، تأتي من الاقبية السفلى ، ولا أحد يسمعها الا المسكونون مثلك ...

ثم سقطت صريعة شيطان مراهق ... وكان الناس في هذه المدينة يكبرون بسرعـــة مدهشة ، كالاعشاب السامة ، يخافون من الموتى ، ويضحكون مـن المجانين ، يتقولبون كالاكياس ، ويسقطـون كأوراق الخريف عـلى جوانب الطرقات ، صرعى ، بلا حرب يسقطون ... قال ساداتنا المثقفون العارفون بمجرى الامور : انهم مكبوتون معقدون . وانفردوا بذواتهم معقدين مكبوتين . فسبحان من عقد وكبت بلا سبب !

« ... قلت لك مرارا بيني وبينك بحر من الافواه والادمغة والانوف ، من النفـــوس الامارة بالجنون ، بالخوف الممزوج ببقـــايا العصور وسحنات التاريخ .

قلت : يركض بيني وبينك نهر من القبـــح ، وأنا لست بالقبيح ولا بالمجنون ... أنا اللغم ، أبحث عن صليبي ، فأنا لست الخضر ... أنا أنتم ، أراني مشوها ، ملطخا ، شريفا ، عاهرا ... وأراكم تدّعون حيازة النجوم وعشق القمر ، ولا أرى في نفسي ، شيئا يعشق ... في البدء كنت وحدي ... وجئتم فعلمتموني أن أتغنى بحب القمر ، ثم الهاكم التكاثر . وغنيت وحـــدي كالببغاء ، تحسرت وحدي ، زينت بالقمر . وتدللت . تماما كالمراهق العاشق . لكني لما وجدت انهم كثيرون ، من ينافقون القمر ويبيعون الارض لبعضهم ... لم أر في نفسي شيئا يعشق ... » .

أنظروا اليه ، ها هو يمشي كالعاقل ، لا يركض ولا يبكي ، يتقدم في الشارع الانيق ، أنيق النظرات ، حافي القدمين ، والراس خال تماما ...

« ... وضعت أوزاري وذنـوبي في قمامة الاوزار والذنوب . وصرت خفيفا كالقمر ... ورغـم انكم ترون الابتسامة على وجهي ، فأنا لا أبتسم ، أبدا لا أبتسم . أتضايق من العيون المشبوهة ، من الاقـــوال البذيئة ، تضرب مسمعي ، تدنسني ، تضايقني نظرات النســـاء المتورمة ، المحملة بملايين السنين من الجهل والتفريخ .. الآن صرت أتقدم بينكم ، تتجمعون حولي كالذباب ، أنـا اللغم ، أنا القليل الادب ، البذيء ، أجهل علم التبجيـل وعلم الاصول ... في ذلك المساء ، حدثني المساء عنكم ، بات العالم كئيبا ، وبات الكل مربوطا في الكل ، من جذع الصفقات السرية والعلنية ، أنكمش على نفسي ، والعالم على نفسه ، خائف من ظله ...

قلتم ، اني خرجت على عقلي ، جننت من كثـرة القراءة ، وضيعت صـــوابي . لم أعد أحسن النفـاق والشقاق ، ربما خانني حيـــائي ، فشتمت السمـــاء والارض ، الزواحف والدواجن ، وحقّت عليّ الحاقة . أنا الاحمق ولا أحد أعقـــل مني ، ولا أحد أحمق منـي ـ بدون افتخار ـ ومن لا يفتخر ، فجزاؤه الجنون ونعم المصير . حقن كثيرة تخدر الاعصاب وأقراص متـكاثرة تليّن الاحساس ، ثم المبيت تحت الماء البارد ، عسى أن يغير الاحمق رأيه ، ويماشينا . أو يعثر على حواســـه فينافقنا ... وضاع صوابي ، أنا أحبذ أن يضيع الصواب في مدينـــة لا صواب لها ... تبعثـــرت بين الصائب والخاطىء ... فلم أنتفخ ولم أفتخر ... » .

ـ ٢ ـ

فجأة اصبح الاحمق مهما في نظر القبيلة ، يحتـل حيزا مهما من عقليتهم ، يمشي على الرمل ولا يترك اثرا ، على النار ولا يترك اثرا ، صار عبرة ، وداء ، ودواء يصلح للكثير من الامراض ، يعرف كـــل الاسرار والانساب ، والبطون ، يرافق الجن وينطق بالحكمة ... الصغـــار يتحرشون به في النهـــار ، ويرعبونهم به في الليل ،

والفتيات الناضجات كالتفاح يتمنونه في الليالي الباردة. تتبرّك به النساء في سرية تامة ، ويستعملن مخلفاته قصد تطويع الازواج ، أو هدم البيوت ، أما الرجال فيذكرون الله وملائكته ورسله ، بمجرد ما يلمحونه ، خوفا من مصير يشبه مصيره ... والاحمق المعتوه لا يأبه بأحد ، يقفز ويقفز ، يلاعب القمر ... ويحتل حيزا مهما من عقلية المدينة ، هو وجه هؤلاء جميعا ، هو وجه كل من تعددت وجوهه . يحمل أسرار الناس ، يخاف عليها أن تذاع ، لكنه يذيعها صباح مساء ، يبوح بها للجميع ، ولا يبوح بها لاحد ... ولا أحد يثق بالاحمق الا الاحمق ... بالفعل كان يشبهنا في كل شيء ، في رزانتنا ، في استقامة سلوكنا ، ويتفق معنا على كل الاشياء . وبغتة رفض كل شيء صائب وخاطيء ، رفض الذهاب الى عمله المعتاد . لم تعجبه رتابة الايام ولا قهوة الصباح . ومن ثمة نسي منزله ، أصدقاءه ، والحقوق والواجبات ... وعندما تيقن انه في كامل صحته العقلية ... أدركه الوقت، فجنّ ، وخرج يتفسح أمام الملأ ، لا يرتدي شيئا من ثيابه غير الحذاء .

وعمّت الشارع فرحة عارمة . انسان عار ، كما ولدته أمه ، يتفسح على الانيقين المتعجرفين ، وعلى الطائعين الصابرين ، وعلى الواجهات ، يضحك على النهار وعلى الدكاكين المصطفة ... رجل عار تماما . وتوقفت الحياة لحظة ما . توقف الهواء، تكسرت الحقيقة، استمنت بعض العقول ، وغضت الطرف بعض العيون حياء مصطنعا . والباقي أخذ يحدّق في المجنون بجرأة ، وتلذذ فائق ... انسان خرج عن رشد الآخرين ، يطلب منهم أن ينزعوا ثيابهم ، لانها تنافقه، تخيفهم وتخيفه... ويسير في الازقة . لا شيء يهمّ في هذا العالم ، كل الاشياء مضحكة ، والمدينة مستشفى بلا سياج ... كالذباب يتجمع الناس ، يحومون حول الفرحة العارمة.. والفرحة تمازج الشمس ... حتى الامس القريب كان هذا المجنون من خيرة المثقفين ، واليوم ها هو يقفز ، يتجرد من ثيابه ، ويلطم الشمس ، يبكي ، يقول لها كل ما يغنيها قليله عن كثيره ... والفتيات الناضجات كالتفاح يسرقن النظر الى الرجولة ، الرجال يتقززون من الرجولة ، يخجلون ، ويرصدون شجاعة لا يملكها الا الحمقى في زمان جبان ... والفرحة قد بلغت أوجها ، وكادت أن تعمّ المدينة . وأخيرا جاء شرطي رزين عاقل ، والقى القبض على الفرحة العارمة ، فتفرقت الجموع مكرهة ، وراحت النفوس الامّارة بالجنون ، تبحث عن فرحة عارمة أخرى ...

— ٣ —

في عزّ الليل كان يمشي ، يحاذي جدار المقبرة ، يخاطب أشجار الصفصاف الشامخة ، المنتصبة كالشهود أمام القضاء والقدر . يشتم النوافذ الساهرة ، ويمشي ... هل فرّ من مستشفاه ؟ أم هذا معتوه آخر جنّ منذ قليل ؟ لكن ثقاة المدينة أكدوا انهم — فعلا — رأوه باعينهم يمشي في عزّ الليل . بل اقسموا على طلاق زوجاتهم ان كانوا كاذبين . ثم تكاثرت حكايات الناس عن المجنون . مرة رأوه يجري فوق السطوح ... ومرة كان خلف المزبلة يقلب أزبالها ، ويرتدي كامل ثيابه ، يبحث عن انسان ما ، عن شرف ما ، عن صواب ضاع منه ... حتى اذا ما عادت الجموع تحوم حول الفرحة ... ضحك الاحمق وزاد ضحكا ... وتعلمت النساس الضحك ، فضحكوا ... لم يأت الشرطي ... ضحكت الجموع الجافة ، ما طاب لهجاتهم الجافة أن تضحك ... ورأوه يقرأ الجريدة حافي القدمين ، ورأوه يبتسم للاطفال الشرسين والدم القاني ينزف من رأسه الاشعث ، ورأيناه لا يمارس الجنس .

واذ ذاك تيقنا ان المعتوه غير عادي ، ولا يعتمد عليه ، أو يؤخذ بشهادته ، لا يرث ولا يصلح للزواج ... وان لم يضر فلا ينفع ... الا النساء المتورمات النظرات ، المتفتحات ، الضاحكات ، المستأنسات كالزهور ، الملفوفات كالاكياس ، وحدهن النساء كنّ يحترمنه ، ويقدسن مخلفاته . يفهمن ألفازه ، ويحكين بأن شعر رأسه وبوله يصلحان لتزويج العوانس ، ولتطليق العرائس ، وتخريب بيوتات الناس .

— ٤ —

والمجنون يفكر في مشاريع أخرى ، يفكر في سرقة أكبر صومعة في المدينة ، يفكر في ابتلاع ماء البحر وقيادة التاريخ الضرير الى الهاوية ، ويركب السحاب نهارا ، وتركبه الطرقات والشوارع ليلا ... لا يأكل ، لا يشرب ، ولا يذهب كالناس الى المرحاض . وحتى اذا ما نزل من السماء ذات مرة فهو يجلس على الطوار ، يدلّي رجليه . يقطع الطريق على المارة ، ويحلم أن يتدلى من حافة الارض ، وفجأة يقفز ، وفجأة يتدلى ، وفجأة يذهب الى البحر ، لا يبتلعه ، يلطم بمائه وجه الشمس ، فلا تنطفيء الشمس ، ولا تسرق الصومعة ، ولا يتدلى من حافة الارض ... ويدخل المعتوه الى عقله ، يبتلع نفسه ، ويغلق دونه العالم ، الايام والليالي ... وجسمه يظلّ ويبيت يصطدم بالاجسام الصلبة والجدران والارصفة ... يركض المدينة طولا وعرضا ... يلتقط قصاصات الجرائد وأعقاب السجائر ... تطارده النساء والرجال يحولقون ... والمجنون يدقّ أبواب العاقلين .

المغرب — **محمد المصباحي**